هل الإنسان أسير جيناته الوراثية؟

لبنى نويهض

لطالما راودتني التساؤلات كلّما مرض أحدهم أو وُلد طفل مصابًا بمرض وراثي؛ ومن هذه التساؤلات: هل يُعقل أن يكون الإنسان أسير ما يتوارثه من ذويه من جينات ومشاكل صحية؟ وهل نظام الحياة عادل أم يسوده الحظ والعشوائية؟! ثم هل في مقدور المرء أن يخط مضمون جيناته بملء إرادته؟!

في عام ٢٠٠٣، كان العالم يتابع الضجة الاعلامية حول فكّ رموز خارطة الإنسان الجينية... ورغم مرور ما يقارب العقدين على هذه الثورة العلمية، إلا أنّ مفهومًا عامًا ظل سائدًا في الأوساط الأكاديمية... مفهوم يخلص إلى أنّ الإنسان ضحية جيناته الوراثية... إلى أن جاء العالم في الخلايا الجذعية والهندسة الوراثية، بروس ليبتون (Bruce Lipton)، الذي فسّر في كتابه «بيولوجيا المعتقد» (The biology of Belief) أنّه بعد أربعين عامًا من اعتقاده بأنّ الجينات هي التي تتحكّم في بيولوجيا الجسد، اكتشف بأنّه كان على خطأ... فقد أثبتت بحوثه وتوصلاته أنّ معتقد المرء عن نفسه وعن صحته وإدراكه لبيئته، عوامل تتضافر لتتحكّم في سلوكه، والسلوك بدوره يتحكّم في الجينات... بالتالي، متى عدّل المرء نوعية أفكاره، عدّل مسلكه وأعاد صياغة جيناته...

كباحثة في علوم الإيزوتيريك، استوقفتني هذه الآراء المتضاربة، خاصة وأنّ علم الإيزوتيريك يكشف النقاب عن خفايا الأمور ويغوص في فهم الأسباب خلف النتائج الظاهرة. ما يساعد المرء على فهم نفسه واستيعاب نظام الحياة، فيرتفع مستوى وعيه ويتقن فنّ العيش... فمؤلفات الإيزوتيريك (منشورات أصدقاء المعرفة البيضاء- بيروت) تتفرّد في تعليم الباحث كيف يكتسب «المنطق السامي» الذي يربط النتائج المادية الظاهرة بأسبابها الباطنية الخافية. ما يساعد على «حلّ» أحجية أي معضلة، أكانت علمية أم إنسانية أم وجودية... وأحجية الجينات الوراثية تتكشف في الاعتراف بوجود ثلاث حقائق كما يطرحها علم الإيزوتيريك وهي:

الاعتراف بوجود الأجسام الباطنية في كيان الإنسان: فكما أنّ علوم الفيزياء تؤكد أنّ قانون التذبذب يقتضي وجود قطبين متقابلين متعاكسين، إنّما متكاملين. وإلغاء دور أحدهما يعني القضاء على الوحدة الكامنة وراء هذين القطبين... كذلك هو كيان الإنسان، فنظام عمله واستمرارية وجوده الأرضي قائم على قطبَي تكوينه المادي واللامادي... والباطن أو اللامادة في الإنسان هي عبارة عن أجهزة وعي خافية (الأجسام الباطنية) يتميز كل منها بدرجة تذبذب معينة وبوظائف وخصائص محددة يشرحها الإيزوتيريك بإسهاب في مؤلفاته.

وكي يختبر المرء حقيقة أجهزة وعيه الخافية، يكفي أن يراقب تفاعلاته الداخلية... فالإيزوتيريك يفسّر في مؤلفه «محاضرات في الإيزوتيريك- الجزء الثاني»، بقلم الدكتور جوزيف مجدلاني (مؤسّس مركز علوم الإيزوتيريك الأوّل في لبنان والعالم العربي) بأنّ تفاعلات الفكر تؤثر على المشاعر، وتفاعلات المشاعر تؤثر على الفكر، وكليهما يؤثران على صحة الجسد أم علّته... فكما تنطبع الموروثات في الجينات، كذلك تنطبع التفاعلات الباطنية في الجسم الأثيري الذي يمثل الصحة النفسية والجسدية... علمًا أنّ الدكتور مجدلاني يشدد في محاضراته العامة وفي مؤلفاته، وخاصة في كتاب «تعرّف إلى الحب»، على أهمية تفعيل الحبّ في حياة المرء. إذ إن ذبذبات الحب كالمغنطيس تقرّب بين أجهزة الوعي الباطنية وتحقق اللحمة فيها... ما يجعل المرء يفكر بإيجابية ويعيش حالا من التوازن والانسجام... والنفس المتوازنة حصنًا منيعًا ضد الأمراض.

الاعتراف بقانون السبب والنتيجة- الكارما: منهج علم الإيزوتيريك يُكسب الباحث المنطق السامي، ما يجعله يتلمّس عمليًا بأنّ نظام الحياة لا يُخطئ، إنّما محدودية معرفة المرء لكيفية عمل النظام تجعله بمنأى عن فهم الأسباب الحقيقية للخلل الذي يصيب عمل بعض الخلايا. فالأمراض الوراثية كما يوضحها الطبّ هي نتيجة تغيّرات قد تكون طفيفة في الجينات. وهذا ما يُسمى علميًا «بالطفرة» (Mutation)). أمّا علم الإيزوتيريك فيوضح أنّ هذه الطفرة ليست سوى تمظهر مادي لسبب باطني خفي يرتبط بمسلكيات المرء التي اتخذت منحىً سلبيًا أو خاطئًا... فالإنسان كائن «خاص» يتمتع بحرية الاختيار... وبهذه الحرية، يعبأ مضمون خارطته الجينية من خلال أعماله الإيجابية أم السلبية، فينتفي مبدأ الحظ والعشوائية واعتباطية النظام في توريث البشر أمراضًا ومشاكل صحية...

الاعتراف بمبدأ التجسّد: ؟العودة إلى الحياة؟ مفهوم يعلّل أسباب الفروقات بين شخصيات البشر وخاصة بين الأبناء، كما يميط اللثام عن أسباب الأمراض الوراثية... إلى ما هنالك من أمور قد يعجز المرء عن فهم جمال عدل الحياة إن أسقط مفهوم التجسّد من معادلة تفكيره . ويوضح الدكتور جوزيف مجدلاني في كتابه «العودة إلى التجسّد... واقع أم وهم؟!» أنّ التجسّد واقع ملازم لوجود الإنسان على الأرض كي يتابع مسيرة تطوره... ويشرح في الصفحة ٣٣ أنّ «الإنسان، عبر تجسّداته المتكرّرة على الأرض، يكتسب العديد من العلوم والمعلومات، مثلما يكتسب الكثير من الميزات والطباع والمناهج الفكرية... وكل هذه الاكتسابات تُسجّل في وعيه الباطني عبر ذبذبات لا منظورة...». ويوضح في الصفحة ٣٥ أيضًا آلية انتقال هذه الذبذبات من عالم الوعي الباطني إلى جينات الوراثة حيث «يرث المرء نفسه بنسبة ٦٠٪، ويتأثر بما يتوارثه من ذويه والبيئة بنسبة ٤٠٪ «. (كما فسره كتاب الإيزوتيريك «عاد ليخبر»، بقلم الدكتور مجدلاني)

في الخلاصة، إنّ الخارطة الجينية هي خارطة أفعال المرء، لكنّها تتبدّل في كل لحظة مع كل سلبية يقتلعها من نفسه، ومع كل إيجابية يكتسبها في الحياة، ومع كل عمل يقوم به بشغف ومحبّة. وهذا ما يؤكد قوة الحاضر وفعل الإرادة وطاقة الحبّ وكل سمة إيجابية في التأثير في تلك الخارطة... وعلم الإيزوتيريك من خلال منهجه العملي يقدّم «خارطة طريق» كي يتعرّف المرء إلى حقيقة نفسه... فمتى عرف المرء نفسه، عاين مواقع الضعف فيه، اعترف بها والأهم عمل على استبدالها بالنقيض الإيجابي... فهكذا يتطور المرء، وهكذا يفعّل إرادته ومقدراته في سبيل عيش أفضل ووعي أشمل... فينتفي الحظ والصدفة من المعتقد إذ إنّ المرء هو محور حياته وموروثاته.